يحرّك يده ورجليه كمن يسبح في الماء ثم قالوا له ان كثيرًا من كلاب البحر مقبل نحوهُ لافتراسهِ فاجهد نفسهُ في السباحة وكان نائمًا على ظهر الغمرة فسقط عن ظهرها وترضّض . وفي مرةٍ اخرى وجدهُ رفاقهُ نائمًا في خيمة وعليهِ هيئة الانزعاج من سماع اصوات المدافع فجعلوهُ يعتقد انهُ في موقعة من مواقع الحرب والقتلى تسقط حولهُ وكانوا يتقلدون اصوات الجرحى ثم اخبروهُ ان الرجل الذي بجانبهِ سقط قتيلاً فبلغ الاضطراب منهُ كل مبلغ حتى انهُ قام من فراشهِ وركض هاربًا فعثر بحبال الخيمة وسقط على وجههِ وحينئذٍ استيقظ من نومهِ

هذا وحوادث الجولان في النوم كثيرة متنوعة وهي على درجات مختلفة من الشدة ومرجعها كلها الى ان السمنبولزم او الجولان في النوم هو نوع من الحلم تشتدُّ فيهِ قوة الوهم او العواطف حتى انها تحرك اعضاء الجسد حركات موافقة لها . وقد تقتصر هذه الحركات على النطق ببعض الاصوات وقد تتناول المشي وعمل بعض الاعمال المحكمة اشد الاحكام وبين هذين الطرفين درجات كثيرة ولا بدَّ فيها كلها من ضعف سلطة الارادة على الافكار وتوقف فعل الوجدان وقتًا وقتيًا

تولُّد اللغات ونموّها

النبذة الرابعة . في التغيير والزيادة والنقصان

بيّنا في الجزء العاشر ان اللغات الحيّة لا تلبث على حالة واحدة بل تتغير على الدوام شأن كل الاجسام الحيّة وان هذا التغير لا ينتصر على الالفاظ بل يتناول معانيها ايضًا . ويظهر لدى امعان النظر ان تغير اللفظ والمعنى غير متلازمين لانهُ قد يتغير لفظ الكلمة ويبقى معناها على حالهِ كما في آسى وواسى وكما في كثير من الكلمات التي حرّف العامّة لفظها وابقوا معناها على حالهِ مثل القنّيط والقنطين المقول فيها قرنبيط وقنطين . وقد يتغير معناها ويبقى لفظها على حالهِ مثل كلمة جواب فانهُ يراد بها الآن في بر مصر المحرر او المكتوب . وقد يتغير لفظها ومعناها معًا مثل قلنسوة فان العامة تقول فيها الآن فلوسة وتحصرها في ما يلبسهُ الكهنة وبعض المشائخ . وكلُّ ذلك دليل على انهُ لا علاقة لازمة بين اللفظ والمعنى

اما الداعي الى هذا التغير فهو السهولة والاقتصاد فانهُ لو سهل على كل الناس ان يطلقوا بكل كلمة او ان يغيروا لفظ الكلمة او يبدلوها بكلمة اخرى كلما تغير مدلولها ولو قليلاً او لو سهل عليهم انهُ كلما بدا لهم معنًى جديد يضعون لهُ كلمة جديدة كما يسهل عليهم ان يطلقوا عليهِ كلمة قديمة

من كلامهم ما تغيرت كلمات اللغة في لفظها ولا في معانيها بل بقيت على حالٍ واحدة واقتصر اهلوها على وضع الكلمات الجديدة لكل معنى جديد يبدو لهم و بلغت لغتهم حدًّا لا حصر له . وهذا خلاف الواقع ولذلك ترى كلمات اللغات الحيَّة تتغير على الدوام في مبانيها ومعانيها . ولا عبرة بثبوت اللغة العربية الكتابيَّة على حالة واحدة من حيث بناء الفاظها منذ دُوِّنت الى الآن لانها لو تبعت اهلها لصارت الى ما صارت اليهِ اللغة العامية . وقد حصرنا ثبوتها في بناء الفاظها ولم نطلقهُ على مدلولها ولا على تراكيبها لان ذلك المدلول وهذه التراكيب قد تغيرت كثيرًا بانتشار العلوم والمعارف ومخالطة العجم والبربر والترك والافرنج فصار لكثير من كلماتها معنيان معنى وضعي ومعنى اصطلاحي . وحسبك دليلاً على ذلك ان الاصطلاحات الفقهية ملأت كتابًا كبيرًا والاصطلاحات الصرفية والنحوية والبيانية والعروضية والمنطقية والطبية والكيماوية والصناعية لو جُمعت وحدها لملأت كتابًا ضخمًا بل كتبًا. وكل هذا التغيير العظيم حدث في الثلاث المئة الاولى بعد الهجرة ولو لبثت العلوم والفنون تتقدَّم تقدمها في ايام الرشيد والمأمون لبلغت اللغة العربيَّة حدًّا يفوق التصديق

وكانت العربية تتغير قبل الاسلام من سنةٍ الى اخرى لفظًا ومعنى كما تتغير اللغة العاميَّة الآن ولذلك اقتصر الذين جمعوها على لغة قيس وتميم واسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين وتركوا ما سواهم من العرب لان لغاتهم كانت فاسدة ومشحونة بالكلمات القبطية والحبشية والرومية والسبطية . ومع حرصهم على جمع العربية الصريحة وظنهم انهم جمعوا لغةً خالصة من اثر العجمة يرى في ما جمعوهُ كلمات كثيرة عبرانية وسريانية وحبشية وقبطية وفارسية ويونانية

والكتَّاب الاولون الذين كتبوا في صدر الاسلام كان اكثرهم من العجم والروم والسريان ولذلك نرى كتاباتهم التي تعالي الآن في بلاغتها مختلفة الانشاء متباينة الاساليب والتراكيب بحسب الملكات التي ربوا عليها في لغاتهم الاصلية ولاسيما اذا كانت مترجمة عن لغة اجنبية لان كثيرًا من المعاني لا يمكن افراغهُ في قالب عربي مبتذل والمترجمون الذين حاولوا سبك ترجماتهم في قالب عربي محض اضطروا ان يتصرفوا في ما ترجموهُ ويحذفوا كثيرًا من معانيه او يبدلوها بغيرها . ولا يعلم ذلك الاَّ من حاول ترجمة كتاب ادبي فصيح العبارة من لغة بعيدة عن العربية كالفرنسوية او الانكليزية . وحسبُ المترجم الذي لا يباح لهُ التصرُّف في ما يترجمهُ ان يسبك المعاني بعبارات معربة لا التباس فيها وان يبدل الاستعارات بما يقابلها في العربية اذا وجد الى ذلك سبيلاً . ولا بدَّ من شيوع الاستعارات والاصطلاحات الافرنجية والتركية ايضًا بيننا ونظرتها الى اقلام ابلغ الكتَّاب كما شاعت الاستعارات والاصطلاحات اليونانية والفارسية في ايام السلف

وتطرقت الى اقلام كتّابهم . ومَن تراهُ يتكر ذلك وشواهدهُ اكثر من ان تذكر . بل ان طرق التعبير قد تغيرت كلها من كل جهة فلا ترى احداً من المحدثين يعبّر عن افكارهِ كما كان يعبّر عنها عرب الجاهلية الاّ اذا تكلّف تقليدهم وحينئذٍ يظهر التكلّف في كل عبارة من عباراتهِ . وعند امعان النظر نجد ان المولّدين استعملوا عبارات كثيرة لم ترد في اقوال العرب كقولهم استغرب في ضحكهِ وبرح الخفاء وضرب الى البياض وغير ذلك مما يطول شرحهُ وان كل مصطلحات الكتّاب الحديثة بل كل ما يكتب الآن في الكتب واجرائد والقوانين الدولية ورفاع الحكّام في مصر والشام والعراق وتونس بعيد عن اساليب العربية القديمة بعدًا شاسعًا . ولو كتبت هذه المكتوبات بالعربية التي كانت شائعة في ايام امرئ القيس وامرء القيس لتعذّر فهمها على اكثر القرّاء

ومن جملة طرق التغيير ابدال كلمة باخرى كابدال اهل مصر كلمة خبز بكلمة عيش وكلمة ملح بكلمة مصلح . وهذا الابدال كثير في اللغة العربية وقديم فيها جدًّا ولعلهُ السبب الاكبر في كثرة مترادفاتها واتساع نطاقها . وهو كثير ايضًا في غير العربية حتى كأنّ استعمال الكلمات زيٌّ (مودة) يتبع الزمان والمكان

وهناك نوع آخر من التغيير لازمَ اللغة منذ نطق بها الانسان واتسعت مداركهُ وهو اشتقاق الالفاظ الدالة على المعاني العقلية من الدالة على المعاني الحسيّة كالعقل والاستقامة والنصاحة والجور والانصاف والاطلاق والتقييد والحل والربط والعطي والشر . ولم يزل هذا الاشتقاق او شبههُ جاريًا الى يومنا هذا فقولنا حلّ الحرير ودخّن التبغ وطبع الكتاب ولبّس المعدن فعالٌ جارية هذا المجرى . ومن قبيل ذلك استخدام مصطلحات العلوم والفنون لمعانٍ اخرى غير معانيها الوضعية او الاصطلاحية . فالنحوي يقول رفعني الشوق وخفضني واليائي يقول طوينا الخبر ونشرناهُ والخبّاز يقول عجّنا الناس وخبزناهم والفلّاح يقول مَن يزرع الشر يحصد الندامة وقس على ذلك كل الاستعارات التي تنبسط لها النفس وترى المعاني من خلالها كما ترى العين الحوادث التاريخية في صورها . وهي كثيرة في كل لغة وتزيد يومًا فيومًا . وقلما تجالس رجلاً له صناعة الاّ وتراهُ يستخدم مصطلحات صناعتهِ لما يعسر عليهِ التعبير عنهُ . وكل ما ذكرناهُ من طرق التغيير لا يختص بالعربية بل يعمّ كل اللغات لانها كلها قد تغيرت في مدة الف سنة كما تغيرت العربية وازيد

هذا من قبيل التغيير اما الزيادة فالركن الاعظم من اركان اللغة والسبب الاقوى من اسباب نموها . وطرق الزيادة كثيرة : منها التوسع في معاني الكلمات واطلاقها على معانٍ اخرى كما مرّ ومنها النحت اي استخراج كلمة جديدة من كلمتين او اكثر مثل الجعفلة من جُعِلتُ فداك والحيعلة من حيّ على الصلاة وهو كثير في اللغات الاوربية فتراهم كلما ارادوا وضع كلمة جديدة

يتخذون لها كلمة من الكلمات اللاتينية او اليونانية وقليلٌ في العربية مع انه متيسر فيها واذا بحثنا عن اصل الكلمات العربية الزائدة على ثلاثة احرف قريبا وجدنا انها قد تركبت بالنحت بل ان بعض علماء اللغات يقول ان الثلاثية نفسها قد تركبت بالنحت ايضاً وكذلك كلمات بقية اللغات ولاسيما اللغات الاوروبيَّة التي قد عُرف الآن انها مركبة من اصول قليلة احادية المقطع

ومنها الاشتقاق وهو كثير ايضاً في العربية وفي غيرها من اللغات ونطاقه في العربية واسع من حيث المزيدات ومشتقاتها وضيق جدًّا من حيث حصر موازين الافعال في الثلاثي والرباعي ولذلك ترى اهالي هذا العصر قد اشتقوا افعالاً من الكرازة والاكسيد والكمرك والكهربائية فقالوا كرَّزَ وأكسَدَ وكَمْرَكَ وكَهْرَبَ ولكن تعذَّر عليهم ان يشتقوا افعالاً من التلغراف والدرونسو والكُنتراتو وهذا سهل جدًّا في اللغات الاوربية . ونحن لو قلنا نعصبنا للغة لسهل علينا ان نشتق افعالاً من كل اسم مهما كان عدد حروفه إما بحذف بعض اصوله كما في مَغنَطَ من مغنطيس وسوكر من سوكرنا او بوضع ميزان للافعال الخاصَّة والسداسيَّة المجرَّدة . ولا ننكر ان ذلك يكون على غاية الغرابة ولكنَّ غرابته لا تدوم اكثر مما تدوم غرابة الافعال الاعجميَّة على سمعنا حين تعلمنا لها

ومنها التعريب وهو باب واسع دخله المتقدمون والمتأخرون ولا يمكن ان يُغلق ما دام الانسان انسانًا وما دامت العلاقات منتشرة بين الناس . ولله مثيل في كل لغة فاللغة الفارسية ثلث كلماتها عربي الاصل وكذا اللغة التركية . واللغة الانكليزية استعارت كلمات كثيرة من لغات كل الشعوب الذين يحكم عليهم الشعب الانكليزي او يتجر معهم . ويزداد هذا الباب اتساعًا بزيادة العمران واتساع نطاق التجارة

ثم ان النمو يتناول النقص كما يتناول الزيادة فلا يحيا حيٌّ من نبات او حيوان الاَّ وتزول منه بعض الفروع والاعضاء من وقتٍ الى آخر وهذا شان اللغة فكم من كلمةٍ صارت مهجورة بعدما كانت شائعة وكم من تركيبٍ أُهمل واستُعيض عنه بآخر ويظهر ذلك واضحًا مما ياتي . قيل طلب الاصمعي من فتًى من فتيان العرب ان يصف له المطر فقال "عنَّ لنا عارضٌ قَسْرًا تسوقه الصَّبا وتحدوه الجنوب بجبوحٍ حتى اذا ازلأمَّت صدورهُ وانجلَتْ خُصُورهُ ورجَّع هديرهُ وأصعَقَ زئيرهُ واستَلَّ نَشاصهُ وتلاءمَ خصاصهُ وارتجَّ ارتعاصهُ واوفَدَتْ يمانيهِ واعتدَّت أطنابهُ تدارَكَ ودقهُ وتألَّق برقهُ وحُفِرَت نواليهِ والخَمَت عزاليهِ فغادرَ الثرى عيدًا والعزاز بَيْدًا والحُشَّ عَقِدًا والضحاضحَ مواصلة والخيعَاب متداعية". فليرَ كلُّ قارئٍ كم يفهم من كلمات هذه الفقرة وكم منها قد أُهمل لا يستعمله احد من كتَّاب هذا الزمان . وكم من عبارة كانت متداولة

عند الكبار والصغار قلَّ استعمالها حتى لم تعد تفهم عند الاكثرين الاَّ بمراجعة كتب اللغة كقولهم عم صباحًا وايت اللمن والعطن والطلل والبيد ونحو ذلك ممَّا يطول شرحهُ . وهذا يشاهد ايضًا في غير العربية من اللغات

وجملة القول ان اللغة عرضة للتغيير والزيادة والنقصان شان كل حيٍّ من الاحياء وذلك كلهُ لازم لنموها وتقدمها

الطقس في سورية

انتقاد

اهدانا حضرة الدكتور جورج بوست الاميركي احد اساتذة الطب في المدرسة الكلية في بيروت رسالة انكليزية عنوانها شذرات في منيور واوجه سوريَّة وفلسطين . وقد تصفحنا صفحاتها الثلث عشرة فوجدنا خمسًا منها تتضمن وصفًا لارصاد جويَّة مطوعة فيها واحكامًا بعضها مبنيٌّ على تلك الارصاد وبعضها على الظن والتخمين . وصفحة تتضمَّن رسم خارطة الرياح في بيروت . والبواقي تتضمن جداول الارصاد الجويَّة المذكورة انفًا وهي خلاصة قسم من ارصادٍ رُصِدَت في مرصد المدرسة الكلية ببيروت مدَّة احدى عشرة سنة وسبعة اشهر من غرة يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٤ الى غاية ديسمبر (ك١) ١٨٨٥

فالخمس الصفحات الأولى التي لم تتضمن الاَّ يسيرًا ممَّا خرج عن تكرار خلاصة الجداول قد خطها الدكتور المذكور ولذلك نُسبت الرسالة كلها اليهِ وطُبعت تحت اسمهِ بكامل الفايدة ولو لم يكن قد قضى عليها الاَّ بضع ساعات ان لم نقل اقلَّ من ذلك لقلَّة ما بها من التدقيق كما سيتبين لك جليًّا . والخارطة رسمها الخواجه رست احد المعلمين الاميركيين في المدرسة الكلية ولذلك ذُكِرَت في المقالة تحت اسمهِ بكامل الفايدة على حين كان كل اعتمادهِ في رسمها على جداول الارصاد وكان رسمها لا يستغرق الاَّ وقتًا قصيرًا . واما الجداول فقد رَصَدَ اكثرها بعضُ الشرقيين مدَّة عشر سنوات وشهرين كل يوم ثلث مرات متواليات اولاً تحت ادارة استاذنا العلاَّمة الدكتور فان ديك ايام تولِّيهِ ادارة المرصد المذكور واخيرًا حين تولَّى ادارة المرصد بعدهُ . ومع ذلك فليس في الرسالة ادنى تلميح الى مؤسس ذلك المرصد ومنشئ تلك الارصاد ولا الى معاونهِ الشرقيِّ من بابٍ أولى . فلا جرَم ان ذلك من اعجب امثلة الانصاف واغرب دلائل الصحة على دعوى الصداقة والاخلاص !